الباب الثانى

المجموعات الحضارية

أولا : حضارة المجموعة الأولى :

بدات تظهر فى شمال البلاد حوالى سنة ٣١٠٠ ق . م . مجموعة حضارية جديدة ذات صفات مميزة ، أسماها مكتشفها ريزنر بالمجموعة الحضارية الأولى ، وجل مخلفاتها عثر عليه فى النوبة . ولقد عثر حديثا على آثار خاصة بالمجموعة الأولى حتى عكاشة (١٢٨ كم . جنوبى وادى حلفا) وكان قد سبق الكشف عن موقعين لأصحاب تلك الحضارة فى السودان : الأول فى فرص شمال وادى حلفا ، والثانى فى جمى جنوب وادى حلفا . ولكن الباحثين عثروا على بعض الفخار المشابه لفخار المجموعة الأولى فى انحاء متفرقة من شمال السودان وبخاصة بالقرب من أمدرمان . ولعل الأدوات النحاسية التى عثر عليه فى مقابر تلك المجموعة فى فرص أن تكون أقدم ما ظهر من أدوات معدنية فى السودان القديم حتى الآن .

وبالاستعانة ببعض الآثار المستوردة من مصر ، والتى وجدت فى مقابر تلك المجموعة ، أمكن للباحثين أن يحددوا لها تاريخا يعاصر منتصف زمن زمن الأسرة الأولى فى مصر (٣٠٠٠ — ٢٩٠٠ ق . م .) .

وهكذا نجد أن حضارة المجموعة الأولى فى شمال السودان ، وفى النوبة المصرية تظهر معالمها الحضارية منذ العصر الذى تم فيه توحيد شمالى الوادى فى مصر ، وتكوين الحكومة المتحدة الثانية تحت زعامة ملوك الأسرة الأولى . ففى ذلك الزمن يبدو أن منطقة النوبة قد وفدت عليها هجرات من الشمال لقبائل لا يختلف أصحابها فى عنصرهم كثيرا عن العنصر البشرى الذى ساد مصر فى عصر ما قبل الأسر .

واخذت حضارة المجموعة الأولى تزدهر فى أقاليم النوبة أيام الأسرة الأولى فى مصر ، بعد ان كانت أقاليم النوبة ، من قبل ، تفتقر كثيرا الى العنصر البشرى. ويبدو ذلك جليا عند مقارنة مخلفات المجموعة الأولى فى عصرها المتأخر بما تم العثور عليه فى المواقع التى تنتمى الى عصور اقدم للمجموعة الحضارية نفسها . واهم ما يميز حضارة المجموعة الأولى استعمال اصحابها لأنواع البخار . الذى عثر على عديد منه فى المقابر ، كالقدور الكبيرة ذات اللون الأحمر الفاتح (الوردى) ثم الأوانى الصغيرة المزدانة بحليات تقليدا للسلال المصنوعة من القش ، أما طريقة الدفن فكانت تتم بوضع الميت اما فى حفرة بيضاوية مباشرة ثم اهالة التراب عليه ، او باضافة حفرة أخرى جانبية متصلة بها يتم فيها الدفن على عمق قد يبلغ ٣٠ر١ مترا من سطح الأرض (١) . وكان الميت يدفن فى وضع الجنين ، وعلى جانبه الأيمن ، بشرط أن يكون الراس ناحية الغرب ، ولعل فى ذلك اشارة ضمنية لبعض معتقداتهم الدينية . وكما هى العادة فى مقابر ما قبل الأسر فى مصر ، كان الميت يحاط بعدد من الأوانى الفخارية الحجرية وبعض الأدوات النحاسية ثم عقود الزينة من الأحجار نصف الكريمة والصدف .

وكشفت البعثة الاسكندنافية فى أحد الوديان القريبة من « أبكه Abka» على الجانب الشرقى للنيل عند وادى حلفا ، عن عدد لا حصر له من الرسوم الصخرية . حيث نقشت على السطح الأملس للصخور الجرانيتية السوداء صور الأبقار والزرافات والفيلة وافراس النهر وغيرها من الحيوانات التى انقرضت من هذا الجزء من القارة . بالاضافة الى صور الصيادين وهم يقومون بالصيد يرجع بعضها الى أيام المجموعة الأولى (٢) .

وكذلك كشفت البعثة الاسكندنافية فى حفائرها عندوادى حلفا عن دميتين صغيرتين من الطين المحروق احداهما لفتاة صغيرة ، والأخرى لامرأة فى مقبرة سيدة ضمن مقابر تنتمى للمجموعة الأولى (٣) .

---

(١) انظر Emery, Egypt in Nubia, p. 125.

(٢) انظر Rex Keating, Unesco. Courir December 1964, pp. 28/29.

(٣) المرجع السابق . p. 28.

وآثار ملوك الأسرة الأولى ، والتى عاصرت حضارة المجموعة الاولى السودانية — على ندرتها — يجب أن تدرس بعناية ، لما فى ذلك من فائدة فى كشف النقاب عن علاقة حضارة المجموعة الأولى بجيرانها فى الشمال . فكما درس لوح الملك نعرمر الذى اقترن فيه الرمز بالصورة والذى بواسطته أمكن التأكد ، بطريقة تكاد تكون قاطعة ، من قيام الحكومة المتحدة المصرية على يد الملك « نعرمر » . يجب كذلك أن يدرس الأثر الذى كان محفورا على صخور جبل الشيخ سليمان فى غرب النيل عند كور الى الجنوب من بوهين . ونقل الى متحف الخرطوم الجديد ليعرض فى حديقة المتحف ، والخاص بالملك « جر » من أوائل ملوك الأسرة الأولى المصرية ، لما له من اهمية بالنسبة الى دراسة تاريخ السودان القديم . ويعتبر ذلك الأثر الهام نموذجا فريدا للمحاولات الأولى التى اقترن فيها التسجيل بالرسم ، الذى يكاد يقرب من الكتابة المصورة فى أول أطوارها مع بعض العلامات الهيروغليفية . هنالك صور الاسم مكتوبا كما كانت العادة المتبعة فى كتابة الأسماء الملكية بالعلامة التى تقرأ فى الهيروغليفية « جر » فوق ما يشبه تمثيلا لواجهة القصر الملكى ، يعلوها جميعا رسم الصقر رمز الاله حورس ، ورمز الملك كوريث للاله حورس على العرش ، وهو المعنى المأخوذ من التقليد القديم الذى تحول الى اسطورة منذ أن قامت الوحدة الأولى فى مصر قبل وحدة الملك « نعرمر — منا » التاريخية هناك طبقا لأسطورة « ايزيس وأوزيريس » كان يحكم مصر ملوك فى قدسية الآلهة ، أو هم آلهة فعلا . وكان الاله حورس هو القائم على تلك الوحدة الأولى العريقة قد ورث العرش بأمر الآلهة بعد مقتل والده أوزيريس ، ومن يومها تيمن الفراعنة باسمه ، واضافوا الى أسمائهم اسم حورس . وأمام اسم الملك « جر » المذكور صور أحد الأسرى واقفا ، بينما قيدت يداه من خلف ظهره بحبل . وتمثيل الاسرى مقيدين على تلك الصورة ظل معمولا به فى الرسم والرمز طوال التاريخ المصرى السودانى حتى نهاية حضارة مروى . وأمام الأسير رمز لما يشبه المياه ، ولعل المقصود به أن موقعة حربية دارت بين جنود ملك مصر وبين أهالى المنطقة من أصحاب المجموعة الأولى فى منطقة الجنادل حيث الملاحة الصعبة ، أو ربما يعنى ذلك أن القتال قد دار فى النهر بالقرب من الموقع الذى دون فيه الحدث على الصخور . ثم صور الفنان دائرتين فى داخل منهما خطان متقاطعان وفوق احداهما صور طائرا يشبه الصقر ، وفوق الأخرى

علامة غامضة ، وتلك الدوائر عرفت فى الكتابة الهيروغليفية بعد ذلك على انها رموز لكلمة « مدينة » بمعناها القديم ، كما أن الرسوم كالصقر والعلامة الغامضة كانت ترمز الى أقاليم أو بلدان ، وربما المقصود أن القتال الذى دار فى منطقة الجنادل قد نتج عنه اخضاع الثائرين فى مدينتين بتلك المنطقة من السودان الشمالى .

وبعد ذلك يحاول الفنان أن يفسر الرموز السابقة ، فيصور مركبا مصريا ضخما ربط فى مقدمته أحد الأسرى بحبل يلتف حول رقبته ويديه الموثوقتين خلف ظهره ، ومن أسفل المركب وتحت رسم الأسير المذكور صور الفنان رجال صرعى . وكما كانت العادة فى الكتابة المصورة (الهيروغليفية) التى اخذت محاولاتها الأولى ترسخ وتأخذ شكلها النهائى خلال عصر الأسرتين الأولى والثانية ، نجد الفنان فى هذا الرسم يحاول كتابة الحدث بالرموز المتعارف عليها . ثم يزيد فيفسره برسم يقربه الى الصورة منه الى الكتابة .

واذا ما اضفنا نقش الملك « جر » من صخور جبل الشيخ سليمان السالف ذكره ، وكذا العديد من الصناعات اليدوية التى تميزت بها الأسرة الأولى المصرية والتى ظهرت بين مخلفات مقابر أصحاب حضارة المجموعة الأولى السودانية (١١) ، الى تلك القطع التى تتمثل فى أوان حجرية من الطراز الخاص بعصر الأسرتين الأولى والثانية ، والتى ظهرت مؤخرا داخل قلعة بوهين على بعد بضعة كيلو مترات الى الشمال من المكان الذى سجل فيه نقش الملك « جر » فى جبل الشيخ سليمان ، اذا لحاولنا ارجاع أول عهد المصريين بارتياد تلك البلاد الى أيام الأسرة الأولى فى مصر . وليس هذا بمستبعد ، اذا علمنا ان ملوك الأسرتين الأولى والثانية قد احتاجوا الى ذهب النوبة من مناجمه شرقى أسوان بالقرب من وادى حلفا ، حيث صنعوا منه كثيرا من آثارهم الخالدة مثل رأس الصقر الذهبى الذى عثر عليه فى خبيئة هيراكن بوليس (الكوم الأحمر) . فكما حدثنا نصوص

---

(١١) Emery Archaic Egypt p. 60.

الأهرام (١٢) التى يرجع تاريخ الكثير منها الى ما قبل تسجيلها فى أيام الدولة القديمة بقرون عديدة ، كان الذهب معدنا ملكيا مقدسا ، فكل ما يخص فرعون فهو ذهبى مقدس . ولا شك انهم حاولوا بتلك الحملات اخضاع منطقة النوبة السفلى ليضمنوا وصول ذلك المعدن المقدس الى القصر الملكى فى الشمال .

نحن نلجأ الى دراسة تطور العلاقات التى قامت بين أصحاب تلك الحضارات وبين جيرانهم فى الشمال ، نظرا لاهتمام المصريين بتسجيل اخبارهم ، ومنها نستطيع أن نتبين بعض ملامح التاريخ السودانى فى ذلك الحين .

وظلت الأحوال مستقرة فى النوبة ، واستمرت حضارة المجموعة الأولى فى الازدهار الى أن وصلت الأيام زمن الملك « خع — سخم » أواخر زمن الأسرة الثانية (١٣) . هنالك يبدو أن الأحوال قد اضطرته الى ارسال حملة قوية الى الجنوب من حدود مصر ، ولعل السبب فى ذلك أن أصحاب حضارة المجموعة الأولى قد حاولوا التوغل جنوبى مصر ، مضطرين الى ذلك اما بسبب ضغط هجرات جديدة عليهم ، أو بسبب سوء الأحوال الطبيعية . فبين الآثار القليلة التى عثر عليها فى « هيراكن بوليس » — الكوم الأحمر — غربى النيل شمال ادفو ، جزء من لوح ، صور عليه الملك تسجيلا لانتصاره على أهل الجنوب « تاستى » . ويلاحظ أن الشخص الذى صور ليرمز لأهل الجنوب فى ذلك الحين كان ملتحيا ، ويعتبر هذا الرسم من أقدم الرسوم التى تمثل سكان منطقة النوبة فى الوثائق المصرية .

والظاهر أن حملات الملك « خع — سخم » من العصر العتيق لتأمين حدود مصر الجنوبية وفتح الطريق أمام التجارة والتعدين قد قضت على

---

(١٢) وهى نصوص دينية ، أمر آخر ملك من ملوك الأسرة الخامسة ومن بعده ملوك الأسرة السادسة بتدوينها على الجدران الداخلية لغرف دفنهم داخل أهراماتهم فى سقارة ظنا منهم أنها تساعدهم على البعث والصعود الى السماوات العلى .

(١٣) وليس خع — سخموى كما ذكر Arkell Hisstory p. 40

ازدهار حضارة المجموعة الأولى فى كل من النوبة المصرية والسودانية . وبداية عهد الدولة القديمة تظهر ملامح حضارية جديدة تختلف فى مجموعها عن حضارة المجموعة الأولى .

ثانيا : حضارة المجموعة الثانية (؟)

ويعترض كثير من العلماء على وجود تلك الحضارة أصلا ، والمفروض انها عاصرت زمن الدولة القديمة فى مصر ، فى الفترة ما بين حوالى عام ٢٨٠٠ وحوالى عام ٢٢٠٠ ق . م اى من الأسرة الثالثة حتى الأسرة السادسة . وتتميز حضارة المجموعة الثانية بفقرها كما يتضح ذلك من قلة ورداءة مخلفات اصحابها . ولابد ان أصحاب المجموعة الثانية ينحدرون من نفس عنصر المجموعة الأولى مع ظهور أثر الاتصال بالجنوب . والرأى المخالف يرى أن أصحاب حضارة المجموعة الثانية ما هم الا عناصر من المجموعة الثالثة ، عاشت فى ظروف سيئة فانحدرت حضارتهم ، وخلفت تلك الآثار التى تقل فى الجودة عن آثار المجموعة الثالثة فى بداية عهدها .

ولعل أهم الصلات التى تم تسجيلها بصورة واضحة ما بين مصر ، فى زمن أوائل الأسرة الرابعة فى عهد الملك سنفرو (١٤) ، وبين أصحاب حضارة تلك المجموعة ، أن تكون تلك الحملة التى سجلت اخبارها ضمن حوليات الملك المذكور على حجر بالرمو (١٥) . ومن الأرقام التى ذكرها سنفرو نستطيع أن نكون فكرة عن مدى مقاومة اهل البلاد وعن حبهم للقتال وعن كثافة العنصر البشرى حينذاك . فرغم ان تلك المعلومات سجلت بطريقة متقضبة جدا كما اتبع فى كل الأحداث المسجلة على الحجر المذكور ، فقد

---

(١٤) والد الملك خوفو صاحب الهرم الأكبر بالجيزة .

(١٥) محفوظ بمتحف مدينة بالرمو بجزيرة صقلية ، وهو عبارة عن حجر من الديوريت مكتوب من الوجهين ٤٣ر٥×٢٥ سم وعليه قائمة بأسماء ملوك مصر بالتتابع من عصر ما قبل الأسرات حتى ايام الأسرة الخامسة ، ومسجل عليه اسم كل ملك واهم احداث عصره ، ونصوصه الهيروغليفية صعبة الفهم وهناك بعض القطع المكسورة من هذا الحجر محفوظة بمتحف القاهرة أما اسم سنفرو وحربه فى النوبة فمدون على الوجه الآخر لهذا الحجر .

وردت ارقام الأسرى التى بلغت ٧٠٠٠ أسيرا بالاضافة الى ٢٠٠٫٠٠٠ رأس من الأغنام والماشية ، وقد اطلق سنفرو على سكان الجنوب وقتذاك اسم « نحسيو » أى السودانيين ، وكان المقصود بهذه التسمية كل القبائل التى تسكن جنوبى الحدود المصرية ، وقد يبدو طبيعيا أن نتصور بعد ذلك ، بسبب اضمحلال الحضارة التى عرفت بحضارة المجموعة الثانية فى شمال السودان وفى النوبة المصرية . فلابد أن هجمات الملك خع ـ سخم ، ومن بعده الملك سنفرو كانت من العوامل الحاسمة اذ نلاحظ بعد ذلك أن الآثار المصرية تسهب فى الحديث عن ارسال البعثات التعدينية والتجارية نحو الجنوب من أجل الحصول على منتجات تلك البلاد ؛ وأهمها جميعا الذهب ، دون أن تعترضها العقبات ممثلة فى أصحاب الحضارات المحلية كما كان يحدث فى الماضى .

ونلاحظ أن آثار الدولة القديمة التى امدتنا بها منطقة اهرام الجيزة وخاصة منذ ايام الأسرة الرابعة يظهر بينها حجر الديوريت فى صناعة التماثيل الملكية كتمثال الملك خفرع الشهير بالمتحف المصرى ، والديوريت من الأحجار الصلبة جدا كالجرانيت . ولقد دلت الابحاث على توافر ذلك الحجر فى المنطقة الى الغرب من توشكى بحوالى ٨٠ كيلو مترا . هنالك وفى منطقة المحاجر عثر الأثريون على أسماء الملك خوفو ودجدفرع ثم ساحورع واسيسى من الأسرتين الرابعة والخامسة على التوالى ، خلفتها وراءها بعثات مصرية ارسلت مرارا لقطع الديوريت اللازم للعمائر والتماثيل الملكية ، كدليل على وصولها الى تلك البقاع ، وحبا فى تخليد ذكرى الملوك .

ومما هو جدير بالذكر ان احدث الأبحاث فى منطقة بوهين الى الجنوب من وادى حلفا فى المستوى العميق كشفت النقاب عن توافر مخلفات تشير الى عمليات صهر معدن النحاس هناك ، وقيام مدينة سكنية كبيرة محصنة احمايه العمال والمشتغلين فى صهر النحاس والسيطرة على مصادره فى تلك المنطقة ، بالاضافة الى عدد قليل من أهل المنطقة . ويذكر الأستاذ « امرى » انهم ينتمون الى المجموعة الثانية ، الا ان شواهد الأمور تدل على انتمائهم الى مرحلة متأخرة من المجموعة الحضارية الثالثة بعد اضمحلالها . والغريب ان كثيرا من الدلائل تشير الى ان تلك المدينة ترجع فى تأسيسها الى العصر العتيق اى قبل قيام الدولة القديمة ، فالى جانب نوع الفخار الرديء فى

صناعته الذى عثر عليه هناك والذى يشبه مخار الأسرة الثانية المصرية — ويحتمل أن استعماله قد استمر حتى أيام الأسرة الرابعة أيضا — هناك طراز الطوب الكبير المشيدة منه المداميك السفلية لجدران المدينة : فهو من نفس طراز الطوب المقامة منه عمائر الأسرة الثانية ، وفى زمن الأسرة الرابعة استبدلت المدينة الأصلية بمدينة أخرى جديدة ، وتم اضافة جدران حجرية اليها .

وقد عثر فى بوهين على أسماء كل من الملوك خفرع ومنكاورع صاحبى الهرمين الثانى والثالث بالجيزة من الأسرة الرابعة .. ثم أوسر كاف وساحورع ونفرار كارع ونيوسرع من ملوك الأسرة الخامسة . سواء على شكل أختام أو على قطع الفخار . وغنى عن البيان انه اذا ثبت هذا الرأى عن اكتشاف تلك المدينة السكنية التى قامت لتصبح مركزا لاستخلاص معدن النحاس وتسهيل التجارة مع الجنوب ، فلابد أن مناجم ذلك المعدن ما تزال بقاياها موجودة فى مكان ما ، بالقرب من بوهين . وهكذا يمكن أن يضاف الى محاصيل ومنتجات النوبة معدن آخر هو معدن النحاس . فهل ورد ذكره فى النصوص المصرية ضمن منتجات تلك البلاد فى زمن الدولة الحديثة أم أن استخلاص النحاس من المنطقة المحيطة ببوهين اقتصر فقط على زمن الدولة القديمة ثم تلاشى ؟ . الواقع أن هذا المعدن لم يرد ذكره ضمن قوائم منتجات كوش أيام الدولة الحديثة كما أن الآثار التى وجدت بالمدينة المذكورة كانت قاصرة على زمن الدولة القديمة فقط ولم تتعدها كما ذكر الأستاذ امرى (٦) .

وفى رأيى أن علاقة مصر بجيرانها فى الجنوب أيام العصر العتيق — زمن الأسرتين الأولى والثانية المصريتين — تحتاج الى كثير من البحث والجرأة أيضا فى استخلاص النتائج ذات الأثر البعيد فى تاريخ السودان القديم : فمثلا هناك أثر الملك خع سخم من الأسرة الثانية وهو عبارة عن قطعة من لوح حجرى يسجل عليه بطريقة مقتضبة انتصارا على أهل الجنوب . وفيه أشير الى اسم تلك البلاد بالاشارة التى تم التعارف عليها طوال التاريخ المصرى القديم « تاستى » ، وبشكل واضح ليس فيه تردد المبتدئين ، مما

---

(٦) Emery, Egypt in Nubia, pp. 111-112.

يدل على معرفة سابقة بمدلولها . والأستاذ امرى له رأى مخالف (٧) اذ يرى أن الكلمة تعنى فقط « البلاد الأجنبية » (٨) . ولو أخذنا فى الاعتبار العديد من الشواهد سالفة الذكر ، لما أصبح هناك مجال للتردد فى حقيقة أن المصريين — وعلى الأخص فى النصف الثانى من العصر العتيق زمن الأسرتين الأولى والثانية المصريتين — ارتادوا تلك البقاع وعرفوها سواء للتجارة والتعدين أو عند صد الغارات . ويبدو ذلك بشكل واضح خلال التاريخ الطويل للأسرة الثانية ، فالمتعارف عليه أن العصر العتيق قد دام نحو أربعمائة وخمسين سنة ، بل ان بعض المؤرخين يقدره بحوالى خمسة قرون ونصف قرن ، وهى فترة كافية ، بلا شك ، لرسوخ أقدام الحضارة المصرية ، التى مرت خلال تجارب رائدة لارساء دعائم حضارة عريقة ، وذلك قبل بداية العصر العتيق ، أى قبل قيام الوحدة الثانية على يد الملك نعرمر — منا مؤسس الأسرة الأولى فى تاريخ مصر ، والتى قامت بين سنتى ٣٤٠٠ ، ٣٢٠٠ ق . م . طبقا لرأى فريق من المؤرخين (٩) .

وفى تلك العصور السحيقة أطلق المصريون على جيرانهم فى الجنوب اسم (تاستيو) ، وسموا أرضهم « تاستى » بمعنى « أرض أهل الأقواس » بل ان اسمهم كتب بالاشارة الدالة على الأقواس ، مع العلم أن أقليم أسوان ، وهو أول أقاليم الصعيد الواقع فى أقصى حدود مصر الجنوبية ، كان يطلق عليه نفس الاسم ولعلهم قصدوا بذلك انه أقرب الأقاليم لأهل الجنوب . والواقع انه من الناحية البشرية اقرب ما يكون الى اقليم النوبة . بل انهم بذلك يكادون يعتبرونه ضمن أقاليم النوبة . والحقيقة أن معظم أهل النوبة تميزوا ، منذ القدم بمهارة استعمالهم للأقواس والسهام فى الاغارة ، وطالما

---

(٧) Emery Archaic Egypt, p. 100.

(٨) راجع ما سبق من هذا الكتاب Arkell, History, pp. 40-41.

(٩) الوحدة الأولى عاصمتها مدينة هليوبوليس (عين شمس ، من ضواحى القاهرة) وتزعمها الاله الملك حورس ، أشارت اليها المصادر الدينية كثيرا . ويعتبر العلماء أنها قامت فى عصر ما قبل الأسرات — أى عصر ما قبل ظهور الوثائق المكتوبة .

قامت بعض جماعتهم بمهاجمة الحدود الجنوبية لمصر ، والاغارة على طبعثات العديدة للمصريين فيما وراء الشلال الأول عند أسوان ، ويكاد يتفق الرأى على ان غارات أهل النوبة السفلى على حدود مصر ، فى عصورها لمختلفة وبخاصة تلك المرحلة من التاريخ القديم ، انما مردها الى طبيعة البلاد الجغرافية ، التى أصيبت بالجفاف فقلت مواردها ، مما دفع أهلها الى تكرار مهاجمة الحدود المصرية .

ومما يدل على أهمية تلك المناطق من بلاد السودان القديم ، بعد أن أصبحت موطنا للعديد من الهجرات ، ان اهتمام المصريين بالجنوب ازداد منذ أواخر الأسرة الخامسة المصرية ، فأخذوا فى تنظيم علاقاتهم بجيرانهم فيما وراء الشلال الأول ، وهنالك ظهر منصب جديد هام أطلق على صاحبه « حاكم لجنوب » . وكانت مهمته سياسية واقتصادية فهو المسئول عن حراسة الباب الجنوبى لمصر . والقضاء على الاضطرابات العديدة التى غالبا ما سببتها هجرات غريبة عن المنطقة ، وكان يقوم بتنظيم التبادل التجارى بين حاصلات السودان وحاصلات مصر ، ثم كان عليه أن يمهد وسائل المواصلات لبعثات التجارة والتعدين المصرية فيما وراء الشلال الأول . وكان يشترط فى شاغل ذلك المنصب عدا الخبرة بشئون التجارة والبدل أن يتقن لغات ولهجات القبائل المقيمة فى النوبة ليسهل التعامل معها ، وربما كان ذلك أوضح مثال للدبلوماسية فى العالم القديم . وهى لا تتم الا بين طرفين وصلا الى درجة لا بأس بها من الحضارة .

وقد سمت أسوان بهذا الاسم ومعناه بالمصرية « السوق » اشارة الى مهمة المدينة الفعلية حيث أقام حكام الجنوب وخلفوا عددا من المقابر الصخرية فى قبة الهوا على الشاطىء الغربى للمدينة . ومن امثلة حكام الجنوب أيام الأسرة السادسة (٢٤٢٠ — ٢٢٥٨ ق . م .) « خوف حور » و « أونى ». اما خوف حور الذى قام برحلات زمن الملكين مرنرع وبيبى الثانى فقد ورد فى كتاباته بمقبرته بقبة الهوا على الشاطىء الغربى لمدينة أسوان أسماء لبعض المواقع التى زارها أمكن تحديد بعضها :

١ ــ زاتو : عند توشكى على بداية الطريق المؤدى الى محاجر الديوريت .

٢ ــ زاتو : تقع فى منطقة توماس .

٣ ــ واوات : وتقع الى الشمال من ارتى وهى المنطقة الممتدة بين جرف حسين وقرتا Qurta على شاطىء النيل الغربى وتقابل وادى العلاقى على الجانب الشرقى .

وتعتبر من المناطق الهامة ذات التجمع السكانى المتميز ، وقد أطلق اسمها فيما بعد على كل منطقة النوبة السفلى .

٤ ــ مخر Mekher تيريروس Tereros ، ارتيتى Irtjetj وتقع جميعها الى الجنوب من واوات . وربما تقع ما بين ابو سنبل والشلال الثانى . وفيما يتعلق بموقع يام Yam فيقترح بروس ترجر B, Trigger. انها دولة ذات كيان فعلى وسابقة فى تاريخها لحضارة كرمة ، وان حضارة كرمة التالية لها اتخذت من مملكة يام نموذجا نسجت على منواله .

وقد سجل أونى تاريخ حياته على صفحات قبره بموطنه أبيدوس (١٠) حيث نقل هذا النقش الهام من هناك الى المتحف المصرى بالقاهرة ، وخدم أونى زمن الملوك تيتى وببى الأول ومرنرع من الأسرة السادسة .

وذكر حاكم الجنوب أونى ضمن ما ذكر أنه استعان بجنود من جهات النوبة المختلفة مثل ارثت ، البجا ، ايام ، واوات ، وكاعو ، وذلك عند قيامه بتجهيز جيش للتصدى لغارات البدو الآسيويين . كما كلف أونى من لدن مليكه باحضار تابوت حجرى كامل وقمة هرمية ليتوج بها هرم الملك فى سقارة من منطقة محاجر تدعى أبهيت بالنوبة . ويفخر أونى بوصوله الى تلك البقاع ، التى لم تصلها بعثات مصرية من قبل على حد تعبيره . وفى مهمة أخرى ارسل أونى الى واوات لاحضار خشب السنط اللازم لبناء

---

(١٠) Kurt Sethe. Urkunden des Alten Reiches I, 98-100.

سبع مراكب ملكية . ويوضح اونى كيف أن رؤساء اقليمى ارنت والبجا قاموا بامداده بالخشب اللازم ، وانه استطاع أن ينجز تلك المهمة ، فانزل المراكب الى النيل بعد أن حملها بكثير من حجر الجرانيت اللازم لبناء الهرم الملكى فى سقارة .

ولا جدال فى ان انشاء منصب « حاكم الجنوب » تطور واضح فى سبيل تنظيم علاقة مصر بجيرانها فى الجنوب ، وتهذيب للعلاقات الدبلوماسية بين الدول ، وبداية وضع الأسس للدبلوماسية المصرية التى اتضح دورها بعد قيام الدولة الوسطى والحديثة ، عندما أصبحت التقاليد الدبلوماسية راسخة . وبديهى أن ذلك يدل على تطور حضارى بالنسبة للمجموعة الحضارية السودانية من حيث استقرارها ، وازدهار حضارتها مما استلزم تنظيم علاقات مصر مع أصحابها .

ثالثا : حضارة المجموعة الثالثة :

انتهت دورة من دورات التطور وقامت الثورة الشعبية العارمة ، وسقطت على اثرها أعتى واقوى العروش حينذاك . ونعنى بها الدولة القديمة فى مصر وانقطعت الصلات التجارية المنتظمة بين السودان ومصر ، وتذكر المصادر الأدبية التى تردد صداها عندئذ أن جنود الجنوب الذين كانوا ضمن حرس فرعون ساهموا فى اذكاء نار الثورة . ويحدثنا أمير اقليم ادفو أيام عصر المحنة الأولى فى مصر بعد سقوط الدولة القديمة (على جدران قبره فى المعلة قرب ادفو) عن ارسال الغلال والمؤن الى اقليم واوات بسببه انتشار المجاعة هناك ، للمساهمة فى حل الأزمة ، وفى ذلك اشارة الى استمرار وجود الصلة بين مصر وبين البلاد الواقعة الى الجنوب منها فى ذلك الوقت (١١) .

---

(١١) Vercoutter, Kush V. Upper Egyptian Settlers in Middle Kingdom Nubia, p. 69; Vandier. Mo'alla, Caire, 1950 p. 220 ff.

كما ظهر الجنود السودانيون ضمن فرق أمراء الأقاليم أيام ازدهار الاقطاع بعد سقوط الدولة القديمة ، فكان لهم دور فعال فى الصراع الذى احتدم بين الاقاليم بعضها البعض ، حيث كون منهم الأمراء فيالق كاملة ، وحاولوا الاستفادة من شهرتهم فى استعمال القوس والسهم فى الاغارة . فعلى سبيل المثال هذا أمير اقليم أسيوط يحتفظ فى جيشه بفيلق نوبى ، قبل ان يغادر الأمير هذا العالم كان قد أمر بصناعة نموذج خشبى لذلك الفيلق ، مع نموذج آخر لفيلق مصرى مسلح بالحراب والدروع لكى يوضع معه فى القبر ويرافقه فى رحلة الخلود . ويحتفظ المتحف المصرى بالقاهرة بهذه المجموعة التى تجسد فكرة اهتمام القوم وتقدير هؤلاء الأمراء للجنود السودانيين .

وفى تلك المرحلة الزمنية التى نسميها بالعصر الوسيط الأول (٢٢٥٠ — ٢٠٤٠ ق . م .) نلمح ظهور شعب جديد فى منطقة النوبة السفلى ، سميناه **المجموعة الثالثة** ، وكانت اقصى حدود تلك المجموعة فى الشمال قرية « كبانية الشمالية » Kubanieh وموقعها الى الشمال من كوم امبو (١٢) وحدودها الجنوبية موقع عكاشة (١٣) . وكانت الحرفة الرئيسية لأهل تلك الحضارة هى رعى الأبقار وغيرها من الحيوان ، وتتميز حضارتهم بأنواع خاصة من الصناعات اليدوية وأهمها الفخار . اذ ينسب اليهم نوع معين من القدور السوداء ذات الخطوط البيضاء المتقاطعة (١٤) وتلك الدمى الصغيرة من الطين التى تمثل الانسان والحيوان ، وهى التى لا نجد مثيلا لها عند أصحاب حضارة كرمة التى سيرد ذكرها فيما بعد . كذلك انتشرت بين أصحاب تلك المجموعة عادة التحلى بأقراط مصنوعة من الصدف كما صنعوا منه زينة على شكل محابس ، بالاضافة الى استعمالهم لخرز

---

(١٢) Junker, Kubanieh Nord. pp. 35 ff.

(١٣) انظر اللوحة رقم ١ .

وفيما يتعلق بتصحيح أقصى حدود المجموعة الثالثة فى الجنوب ، يرجع الفضل للأستاذ محمد نجم الدين شريف .

(١٤) انظر الشكل رقم ١ .

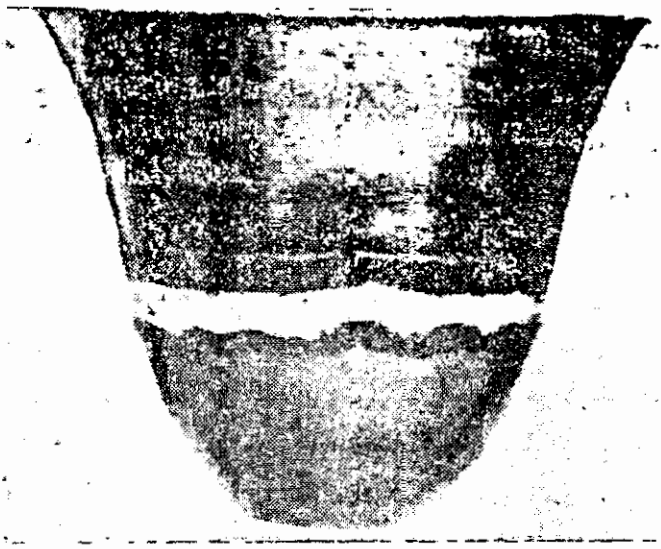

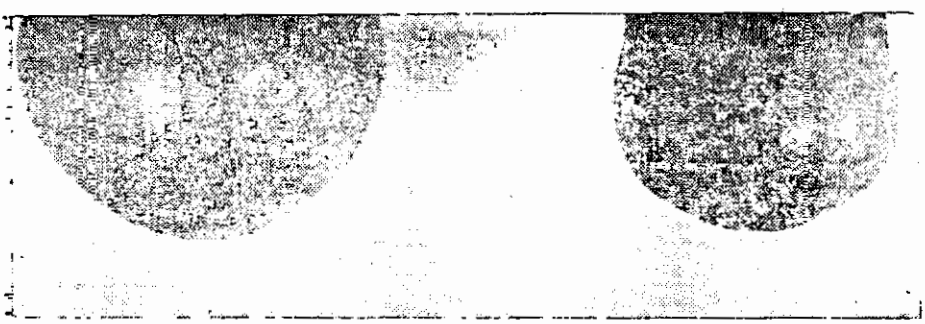

لوحة رقم (١) فخـار المجموعة الثالثة

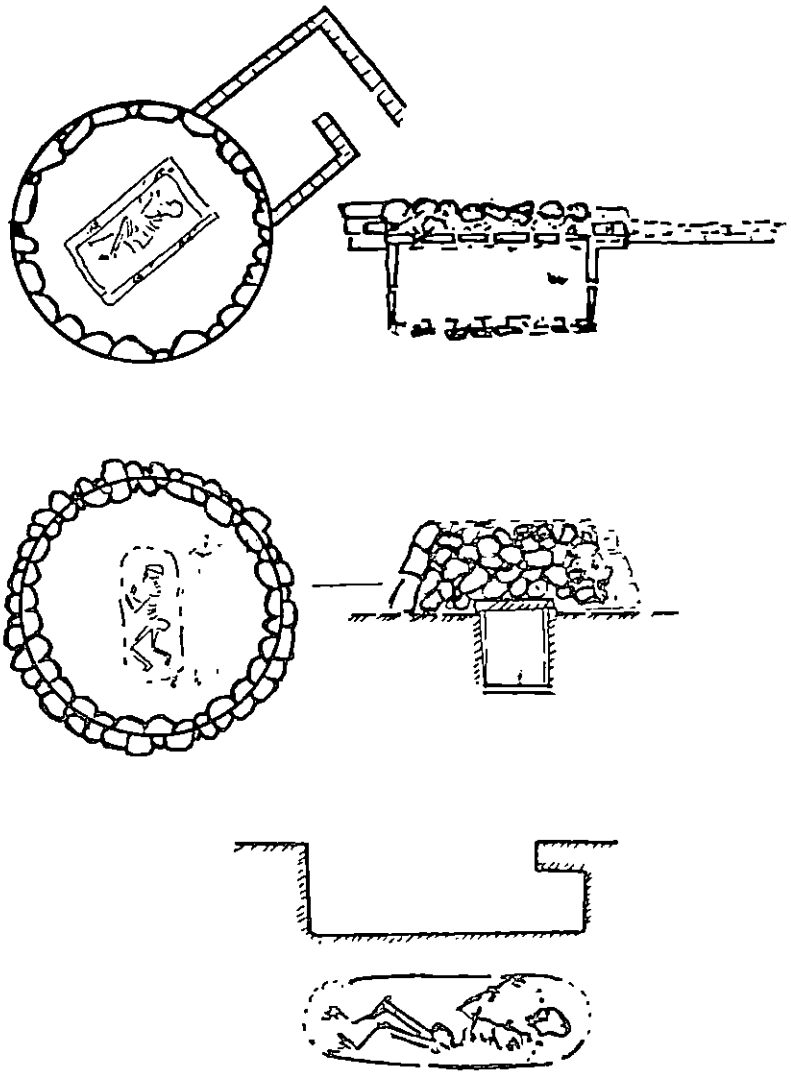

شكل رقم ١ — حضارة المجموعة الثالثة — شكل القبر وطريقة الدفن

الزينة . ويلاحظ أيضـــا عدم وجود فوارق كبيرة بحجم المقابر الخاصـــة بأصحاب تلك الحضارة ، وكذلك فيما يختص بشـــكلها المستدير . فلقد اتخذت مقابرهم شكلا مستديرا جعلها تبدو متشابهة فى المنظر (١٥) .. كما عثر على مقابر خاصة لبعض الحيوانات كالكلاب أو الكباش مدفونة بعناية فى مقابر خاصة أومع أصحابها فى مقابرهم ، ولا شك أن ذلك يمثل نوعـــا من التقديس لهذه الحيوانات .

رابعا : حضـــارة كرمة

والى الجنوب من منطقة انتشار حضارة المجموعة الثالثة ظهرت المجموعة الحضارية التى أطلق عليها اسم حضارة كرمة نسبة الى مركزها الرئيسى الذى يقع عند كرمه الحالية بالقرب من الشلال الثالث ، حيث عثر حديثـــا على أهم مخلفات هذه الحضارة .

وهذه الحضارة الهامة مثلها كمثل حضـــارة المجموعات الأولى والثانية والثالثة لم تترك آثارا مكتوبة لعدم استعمال أهلها للكتابة .. ولذلك تنصب كل مجهوداتنا على الحفائر وما تكشـــفه من مخلفات . ولقد انتشرت تلك الحضارة على منطقة « دنقلة العرضى » بل من الشـــلال الثانى فى الشمال حتى جزيرة ارجو فى الجنوب . وبدأت أولى مراحل حضارة كرمة بنهاية الدولة القديمة وانتهت آخر مراحلها بقيـــام الدولة الحديثة وبداية تصير النوبة . وهى منطقة يتسع فيها الوادى نسبيا وتكثر الخيرات الزراعية . وتميزت حضـــارة كرمة بنوع من الفخـــار الأحمر المصـــقول ذى الحافـــة السوداء (١٦) ، وبنوع فريد من الخناجر بالاضافة الى صناعات جلدية مميزة كالأحزمة ، وصناعات خشبية مطعمة بالمايكا أو العاج ، فى تـــكل صور للحيوانات والطيور .. كما استعملوا نوعا من مساند الرأس يتميز عن الأنواع المصرية بأن قاعدته طويلة نسبيا ، على عكس مساند الرأس

---

(١٥) أنظر الشكل رقم ١ .

(١٦) أنظر لوحة رقم أ ، ب ، جـ .

Kerma

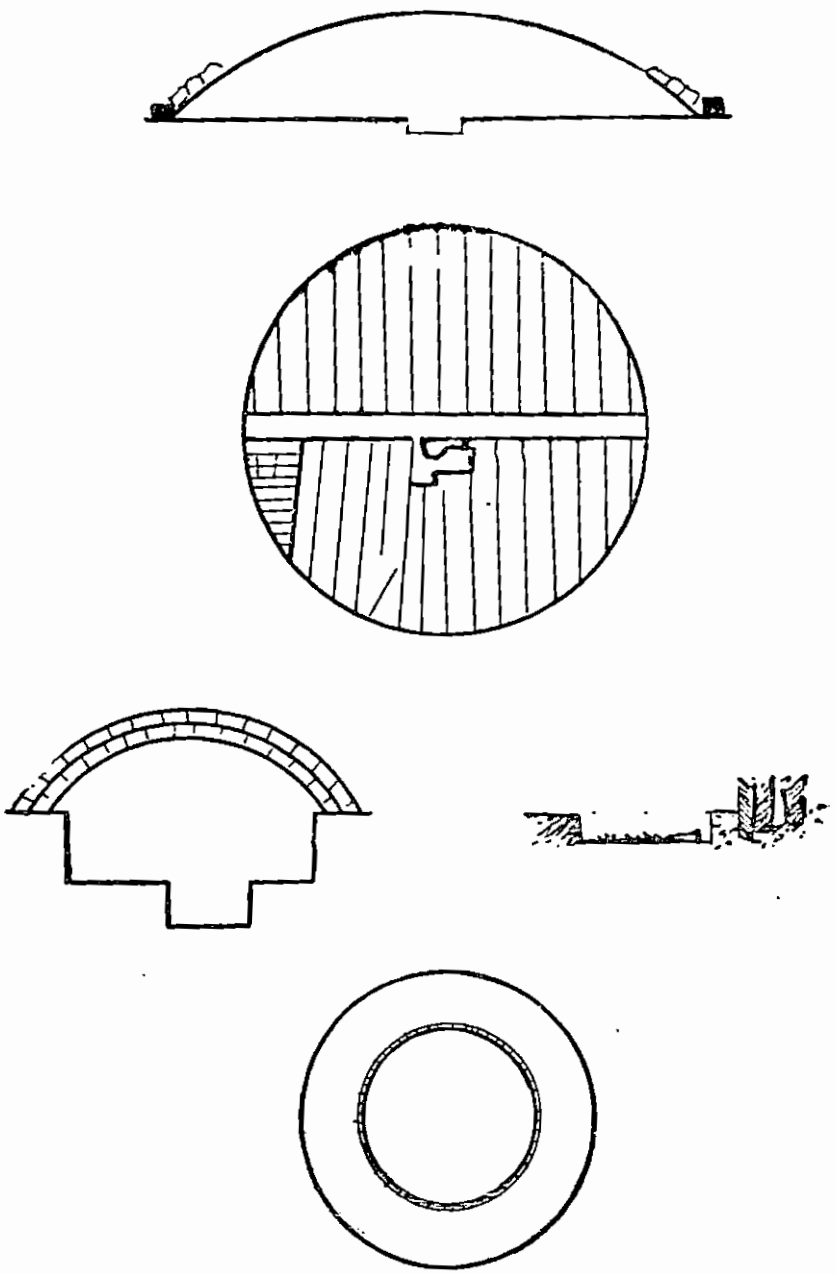

شكل رقم ٢ ــ حضارة كرمة ــ شكل المقبرة

المصرية ذات القاعدة القصيرة ، نظرا لأنها كانت تستعمل داخل توابيت الدفن ، التى لا يسمح اتساع عرضها بقواعد طويلة لمساند الرأس . الا أن الأهم من ذلك هو الفارق الكبير بين شكل وحجم المقابر وطريقة الدفن نفسها . ولكى نوضح المقصود يكفى أن نبين أن المقبر فى كرمة (١٧) — الذى اتخذ شكل الكوم المستدير المنخفض — قد شغل أحيانا مساحة كبيرة جدا ، ففى احدى المقابر الهامة التى يحتمل أنها تخص أحد الأمراء ، بلغ قطر الكوم المستدير حوالى ٩٠ مترا ، ولم يتعد ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار فقط ، وفى داخل الكوم وبخاصة فى المقابر الكبيرة اقيم حائطان من اللبن بمحاذاة القطر يكونان ما يشبه الممر ، يتفرع منهما ، بزاوية قائمة ، حوائط تصل الى محيط المقبرة الفرض منها المحافظة على شكل المقبرة الخارجى ، ويجمعها حائط دائرى منخفض ، ويغطى القبر بعد ذلك بالرمال ، ويوضع على قمته لوح غير مكتوب . ويحدد من الخارج بدائرة من الأحجار الصغيرة السوداء . وفى منتصف الكوم من الداخل بنيت حجرة رئيسية ، كانت تحتوى أحيانا على حفرة يتم فيها دفن صاحب القبر بلا تحنيط ، بوضعه على سرير من الخشب (عنقريب) وكانت هذه الحجرة فى المقابر الكبيرة ذات قبة من اللبن . وفى داخل منطقة الدفن فى كرمة عثر على مقاصير مبنية من الطوب أيضا وتحمل صورا مرسومة كانت بمثابة أماكن لاقامة الطقوس الخاصة بجميع مقابر الجبانة (١٨) .

أما فيما يتعلق بالمقابر الصغيرة نسبيا فان خير ما يمثلها تلك المقبرة التى عثر فيها على الخنجر (١٩) رقم ١٢٢٨ بمتحف الخرطوم حيث دفن صاحبها على سرير على جانبه الأيمن والرأس الى الشرق واليد اليمنى اسفل الرأس . أما الخنجر فقد وجد ملقى بين الساقين مما يرجح أنه كان فى الأصل متصلا بحزام الوسط ، وبالاضافة الى الخنجر وضعت بعض القدور

---

(١٧) انظر الشكل رقم ٢ . واللوحة ١ ، ب .

(١٨) Reisner, M. F. A. 13. p. 72 : Vercoutter, Excavations at Sai 1955-7. pp. 144-169 and pl. XLI in Kush VI.

(١٩) Vercoutter, A Daggar from Kerma. Kush VIII. p. 265.

من انفخار ، ومروحة من ريش النعام ، وبعض حبات الخرز ثم زوجان من القرون ، يتكون كل زوج من قرنى الحيوان المتصلين بعظام الجبهة . وعادة ما كانت تلون بالجير ثم يرسم فوقها بعض الزخارف البسيطة ولعلها اعدت لغرض دينى ، ومع الميت دفن شخصان بعد أن ضحى بهما ومعهما كبشـــان .

أما الخنجر فقد صنع من البرونز (النحاس والقصدير) بطريقة الضرب على المعدن الساخن ، وله مقبض من العاج يثبت بالسلاح بواسطة اربعة مسامير تدخل فى ثقوب السلاح والمقبض معا .

انتشرت بين أصحاب حضارة كرمة عادة التحلى بالأقراط المستديرة الأسطوانية الشكل ، وظهرت بين أصحاب تلك الحضـــارة عادة التضحية بالأتباع والخدم والحيوانات الاليفة بدفنهم دفعة واحدة مع صاحب المقبرة . ففى المقابر الكبيرة بلغ عدد الأشخاص الذين دفنوا مع سيدهم عنوة ما بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ شخصا من الرجال والنساء والأطفال ، أما المقابر الأصغر شأنا فيتفاوت عدد ضحاياها ما بين ١ الى ١٢ شخصا ، كانوا يتركون فى أرضية غرفة الدفن الرئيسية ، وفى الدهليز الكبير داخل المقبرة فى غير ما نظام وربما يكونون قد أعطوا نوعا من مسكر قوى ثم زج بهم عنوة ، وأغلق عليهم القبر . وجدير بالذكر أن بعض مقابر ملوك الأسرة الأولى فى أبيدوس وسقارة فى مصر ربما اشتملت على دفنات من هذا النوع (٢٠) .. ويلاحظ أن عادة التضحية بالأتباع ودفنهم مع صـــاحب المقبرة ، ظهرت مرة اخرى فى منطقة النوبة بعد سقوط مملكة مروى لدى أصـــحاب حضارة المجموعة الغامضة X-Group ، حيث عثر فى مقابرهم الضـــخمة فى بلانة وقسطل الى الشمال من وادى حلفا على عديد من الضحايا الآدمية والحيوانية، دفنوا بالطريقة التى مارسها أصحاب حضارة كرمة حول الشلال الثالث ، وحاول بعض رجال الآثار أن يدعى بأن أواخر ملوك مروى مارسوا أيضا نفس عادة الضحية بالأتباع ، الا أن الدليل على ذلك ضعيف جدا : وكل

---

(٢٠) Emery, Archaic Egypt p. 66.

ما يمكن قوله فى هذه السبيل هو أن بعض ملوك أسرة نبتة قد مارسوا ذلك التقليد بالنسبة للتضحية بالحيوان ، والخيل على وجه الخصوص . فقد عثر على مقابر خاصة بالخيول فى الكرو بالقرب من اهرامات أصحابها من الملوك بالاضافة الى مقبرتين تضم كل واحدة منهما أحد الكلاب ، كما سيرد ذلك فيما بعد .

ويبدو من طريقة الدفن ، ومما عثر عليه هناك من صناعات يدوية متقدمة أن حضارة كرمة امتازت عن حضارة المجموعة الثالثة فى الشمال بنظام مركزى قوى ونظام داخلى متقدم ، فكان يتزعم اهلها أمير تحت امرته جهاز ادارى ، ولولا عدم وجود وثائق مكتوبة لعدم استعمال اهل كرمة للكتابة ، لأمكن تحديد أسماء وانساب أولئك الحكام أصحاب تلك المقابر الضخمة فى كرمة ، ولأمكن معرفة الكثير عن طريقة تفكيرهم ومستوى حضارة قومهم .

ومما هو جدير بالذكر أن المرجع الأول لحضارة كرمة تمثل لفترة طويلة فى نتائج حفائر ريزنر Reisner. فى كرمة . وفيما بين سنتى ١٩٥٥ ، ١٩٥٧ كشف فركوتى فى صاى الى الشمال من كرمة عن جبانة كبيرة من جبانات حضارة كرمة . ولاحظ أن عدد الضحايا الآدمية لدى أهلها قليل اذا ما قورن بأصحاب سهل كرمة ، ومع أن تقارير ريزنر أمدتنا بالكثير من المعلومات عن حضارة كرمة ، الا انها تحتاج الى مزيد من الدراسة واعادة التقييم ، فهناك احتمال كبير أن أصحاب تلك الحضارة هم الأصل فى قيام الحضارات المستقلة فى شمال السودان فى الفترة الواقعة بين سقوط الدولة الوسطى وقيام الدولة الحديثة فى مصر . أى أنه ليس بمستبعد أن أهل سهل كرمة والمنطقة المحيطة به هم أصحاب دولة كوش التى عاصرت الهكسوس الآسيويين فى شمال مصر والتى حاول ابوفيس ملك الهكسوس (٢١) أن يعقد معها حلفا يساعده على اخضاع اهل طيبة (وهم أصحاب الأسرة السابعة عشرة

---

(٢١) وهو الشعب الآسيوى الذى غزا مصر فى أواخر زمن الدولة الوسطى ومكث بها حتى قيام الدولة الحديثة .

المصرية كما سيرد ذكره فيما يعد) (٢٢) وينتمى الى تلك الحضارة مبنيان من الطين فى الدفوفة ، كان احدهما يمثل قصر أمير كرمة . وكان القصر عبارة عن مبنى ضخما من اللبن . وقد اخطأ ريزنر فى تقييم هذين المبنيين بعد أن قام بالكشف عن القصر الملكى لأمراء حضارة كرمة ، او ملوك كوش كما ينبغى لنا أن نسميهم . وثبت أن كل ما بناه ريزنر من نظريات نتيجة حفائره فى كرمة سنة ١٩١٧ ، من أن هذا المكان كان مستعمرة مصرية اسمها قلعة امنمحات «Inebu Amenemhat » وان حاكمها هو امير اقليم اسيوط المدعى « حب جفا » Hepzefa بعيد عن الحقيقة ..

هذا وقد عاشت كلا الحضارتين متجاورتين حتى دخول الهكسوس وغزوهم مصر حوالى سنة ١٦٥٠ ق . م.

اما الآراء حول أصل أصحاب حضارتى كل من المجموعة الثالثة وكرمة فقد تضاربت : ويفرق ريزنر بين أصحاب كل من الحضارتين ، فيعتبر أن اصحاب المجموعة الثالثة يمثلون شعبا بدويا ، ربما يمت بصلة قرابة لليبيين الجنوبيين (الطماح) ، أما أهل حضارة كرمة فيعتبرهم مجموعة بشرية استوطنت البلاد منذ أيام الدولة القديمة ، وربما قبل ذلك (٢٣) . ويضيف أن كليهما لم يطرأ عليه الا مسحة قليلة من العنصر الزنجى .

أما شتايندورف (٢٤) فيعتبر أصحاب حضارة كرمة ضمن طائفة شعوب شمال افريقيا مثلهم فى ذلك مثل الليبيين ، أما رأيه بالنسبة للمجموعة الثالثة فيتلخص فى أن اصحابها وفدوا من منطقة منابع النيل الأزرق وعطبرة أو من منطقة كردفان .

---

(٢٢) ص ٦٠ .

(٢٣) Reisner Kerma V. 555 ff.

(٢٤) Steindorff. Aniba. p. 13.

ويعتبر يونكر (٢٥) أن كليهما من العنصر الحامى اختلط بهما الزنوج الى حد ما ويؤكد يونكر انهما قبيلتان لشعب واحد .

ويقول آركل (٢٦) ان اصحاب المجموعة الثالثة ليبيون جنوبيون . وفى رايى أن الدراسة المستفيضة لمخلفات الحضارتين (٢٧) توضح الصلة الحضارية بينهما وخاصة فى طريقة الدفن على سرير ، وعادة التضحية بدفن الحيوان مع صاحبه ، وربما أيضا فى شكل القبر المستدير ، يضاف الى ذلك بعض الصناعات المتشابهة (٢٨) أما ما يظهر من اختلاف كبير فى حجم المقابر وفى دفنات الأتباع التى تمتاز بها حضارة كرمة ، فربما كان مرده الى ذلك النظام الاجتماعى المركزى الذى تمتعت به حضارة كرمة ، على عكس حضارة المجموعة الثالثة . وليس بغريب ان اقصى الحدود التى بلغهـا المصريون ايام الدولة الوسطى تنتهى عند الحدود التى تفصل جغرافيا بين هاتين الحضارتين ، اى عند الشلال الثانى .

وماذا بعـد ؟

ولقد اضطرت الاغارات المتتالية على حدود مصر الجنوبية ملوك الأسرة الحادية عشرة (٢١٣٤ — ١٩٩١ ق . م .) الى ارسال الحملات الحربية لتأمين الحدود واخضاع اصحاب حضارة المجموعة الثالثة بالنوبة ، وليس معنى ذلك نهاية لعصر حضارة المجموعة الثالثة كلية ، لأن مظاهرها استمرت فى البقاء لفترة طويلة . وربما كان فى تسجيل اسماء بعض الملوك المصريين فى مناطق النوبة السفلى مثل « جرف حسين ، توماس ، وابريم ، توشكى وابو سمبل » وغيرها ما يشير الى وصول حملات الأسرة الحـادية عشرة الى تلك البقاع أثناء قيامها بمطاردة المغيرين ، وتأمين سبل التجـارة بين

---

(٢٥) Junker. Kubanieh Nord p. IV, V.

(٢٦) Arkell. History p. 46 ff.

(٢٧) M. Bakr. The Relationship between the C. Group, Kerma. Napatan and Meroitic Cultures. Kush XIII. (1965). pp. 261-264.

(٢٨) Steindorff Aniba I. P. 16.

مصر وبين شمال السودان وهناك نقش من دهميت جنوبى اسوان لأحد رجال الملك منتوحتب الثانى عاهل الأسرة الحادية عشرة ، وموحد مصر سنة ٢٠٤٠ ق.م . بعد فوضى الانقسام خلال الفترة المسماة بالعصر الوسيط الأول (٢٢٦٣ — ٢٠٤٠ ق . م .) ، وصاحب النقش (٢٩) يتحدث عن قيامه بجمع جنود لجيش مصر من ابناء النوبة ليساهموا فى الحرب ضد الآسيويين . من ذلك نرى مدى تقديم العلاقات التى أمكن اعادتها فى بداية الدولة الوسطى (١٩٩١ — ١٧٧٨ ق . م .) . ولا يفوتنا الاشارة الى ملامح منتوحتب الثانى عاهل الأسرة الحادية عشرة ، ولون بشرته التى تميل الى السواد . وفى النبوءة التى أطلقها الملك امنمحات الأول عاهل الأسرة الثانية عشرة تمهيدا لتوليه عرش مصر ومحاولة اعطاء حكمه الصبغة الشرعية (٣٠) ، لأنه كان مغتصبا لعرشه ، ما قد يشير الى أن أم امنمحات الأولى من منطقة النوبة .

والراجح أن فتح النوبة أيام الدولة الوسطى ، بدأ زمن الملك امنمحات الأول ، بعد أن استقرت له أمور الملك والسياسة ، فالنقوش الصخرية عند وادى جرجاوى بالقرب من كورسكور (٣١) المؤرخة بالعام التاسع والعشرين من حكمه تشير الى ارسال حملة واوات . يضاف الى ذلك ما قرره امنمحات نفسه فى تعاليمه لولى عهده سنوسرت الأول ، من انه اخضع اهل واوات والمجا ويقصد البجا . ولعل فى تسجيل اسم الملك امنمحات الأول فى محاجر الديوريت بأبى سمبل دليلا على نشاط بعثات المحاجر فى أواخر أيامه .

وفى زمن الدولة الوسطى انتقلت الحدود الجنوبية لمصر من اسوان عند الشلال الأول الى اقن مرقسه Mirgissa عن الشلال الثانى حيث أقيمت احدى القلاع الهامة..

---

(٢٩) أحمد بدوى ، فى موكب الشمس ٢٢٧/٢ وهامش رقم ٣ .
(٣٠) بردية بطرسبرج (لننجراد) رقم ١١١٦ .
(٣١) أحمد بدوى ، المرجع السابق ص ٢٢٩ وما بعدها .

والواقع أن حملات الملك سنوسرت الأول على بلاد النوبة كانت بالنسبة لحضارة المجموعة الثانية ذات أثر حاسم ، وقد سجل الملك أخبار انتصاراته ووصوله الى أقصى منطقة وصلت اليها القوات المصرية أيام الدولة الوسطى على لوح أقيم فى معبد بوهين ، تحت قيادة المدعو منتوحتب ، وذلك فى العام الثامن عشر من حكم الملك المذكور (٣٢) وقد سجل على هذا اللوح أسماء عشرة أقاليم تقع الى الجنوب من مصر ، وخضعت كلها للملك ، وأولها اسم كوش ثم شعات Shaat وهى صاى الحالية (٣٣) وشميك وهى Shemyk منطقة شلال دال (٣٤) .

ولعل أقدم نص يذكر فيه اسم كوش ، بطريقة مؤكدة على الاطلاق ، نص بوهين المذكور والمحفوظ حاليا فى متحف فلورنسا بايطاليا رقم [2540] 1542 والذى يرجع الى العام ١٨ من حكم الملك سنوسرت الأول ثانى ملوك الدولة الوسطى المصرية وقد ورد فيه اسم كوش بالنطق « كاس » على رأس قائمة بأسماء المناطق الواقعة الى الجنوب من مصر ، والتى هزمها الملك فى حملته الحربية ، وهناك نص آخر من زمن الملك سنوسرت ورد فيه اسم كوش مرتين على انه « كاس » وذلك فى مقبرة حاكم الجنوب سارنيوت الأول Sarenput المحفورة فى صخور جزيرة الفنتين بأسوان . وورد اسم كوش بهذا النطق أى « كاس » مرة أخرى ، فيما بعد ، فى زمن الملكة حتشبسوت بمعبدها بالدير البحرى بطيبة الغربية (الأقصر الحالية) .

وفى حملة أخرى سجلت أخبارها على جدران مقبرة الأمير « أمنى » حاكم اقليم بنى حسن فى مصر الوسطى ، ومؤرخة بالعام الثالث والأربعين من حكم الملك سنوسرت الأول ، ذكر اسم كوش بالنطق « كاش » ومعنى ذلك أن المقصود بهذه التسميات انما هى منطقة كوش التى ترددذكرها كثيرا فيما بعد

---

(٣٢) Arkell History, p. 59 F. ; BAR, 510.

(٣٣) Vercoutter, Kush VI 147-8.

(٣٤) عن الأستاذ نجم الدين شريف .

أيام الدولة الحديثة بالنطق « كش » . وقد يكون من المناسب أن نذكر فى هذا المقام ، مصدرا آخر من مصادر الدولة الوسطى ، والتى ورد فيها ذكر اسم بلاد كوش ، والذى يعتبر من أقدم المصادر الذى ذكرت اســـم كوش . ونقصد به تلك النصوص السحرية التى تشتمل على قوائم بأسماء البلاد والشعوب والأمراء الأجانب أو المصريين ممن كانوا فى صراع مع ملك مصر ومنهم شعوب وأمراء وأماكن من جنوب مصر ؛ وكانت تلك القوائم تكتب مع نصوص سحرية بالحبر عـــلى :

(أ) الأوانى الفخارية .

(ب) دمى من الصلصـال .

(جـ) تماثيل صغيرة من الألبستر .

وقد كتبت تلك النصوص بالخط الهيراطيقى ، وهو الشـــكل المبسط للخط الهيروغليفى (المصور) ، ويحتمل أنها كانت تكسر بعد ذلك فى مهرجان أو احتفال لتبعد سوء الطالع عن مصر ، وعثر على كميات كبيرة جدا من كســـورها ، وتعرف فى الكتب العلمية بالانجليزية Proscription Lists « نصوص الاحتقار والابعاد او النفى » ، وبالألمانية Aechtungstexte ذلك أن تلك الدمى كانت تمثل أسرى الشعوب المجاورة لمصر ، والتى كانت تكثر من الغارة على حدودها ، كما أن الأوانى الفخارية كانت تحمل أسماء تلك الشعوب وأمرائها ، بالاضافة الى كل ما كان يجلب سوء الحظ لبلاد ، فلعلهم تخيلوا أنهم بوساطة السحر يستطيعون التخلص من شرورهم .

(أ) أما التماثيل الصغيرة (الدمى) من الألبستر فتؤرخ من النصف الأول من الأسرة الثانية عشرة ، ويرد عليها أسماء أحد عشر أميرا من منطقة النوبة وضمنهم اسم أميرة ، بينما يرد اسم كوش فى المقدمة ، وتذكر أسماء أربعة بلاد مأهولة فى منطقة النوبة هى واوات ، كوش وشعات ثم بقس Beqes .

(ب) وتؤرخ الدمى الصلصالية التى عثر عليها فى سقارة من المرحلة الأخيرة

لحكم سنوسرت الثالث حتى بداية الأسرة الثالثة عشرة (اى من حوالى ١٨٤٠ الى حوالى ١٧٨٠ ق . م .) ، وعلى الدمى المذكورة اسماء ٢٩ مكانا ، وكذلك اسماء خمسة افراد من منطقة النوبة اولهم اسم أمير كوش .

(ج) واخيرا فان **الأوانى الفخارية** المعروضة فى متحف برلين تعطى اسماء اثنين وعشرين مكانا فى النوبة ، واسماء خمسة أو ستة أمراء ، أولهم أمير كوش . وتؤرخ الأوانى بحوالى زمن الملك سنوسرت الثالث (حوالى ١٨٧٨ — ١٨٤٣ ق . م .) .

عند زيارتى لمخازن الآثار الخاصة بحفائر جامعة القاهرة فى الجبانة البحرية غربى الهرم الأكبر أثار انتباهى آنيتان من الفخار رديئتى الصنع نسبيا ترجعان لعصر الدولة القديمة عثر بداخلهما على ٢١٢ لوحا صغيرا من الطمى سليما ، يضاف اليها عشرون لوحا مكسورا . وقد كتب على كل منها بالمداد الاسود اسم بالخط الهيراطيقى المصرى ولعلها اسماء الأعداء من المصريين او الأسرى الأجانب الذين كانوا يتعرضون بالغارة للحدود المصرية ، سواء فى الشمال الشرقى ناحية سيناء أو فى الجنوب عند النوبة ، او من ناحية الغرب ، حيث كانت القبائل الليبية تتحين الفرصة للاغارة . وكأنما أراد كهنة البلاد المصرية وسحرتها أن يحبسوهم داخل ما يشبه التمقم ليأمنوا شرهم .

وهذه الألواح الصغيرة تتراوح مقاييسها ما بين ٤ر٠٠ سم ، ٥ر٠ سم طولا و ١ر٧ سم ، ٢ر٢ سم عرضا . (رقم الأثر فى الحفائر هو ٤٣٤ يونية ١٩٥٥ حفائر جامعة القاهرة . باشراف د . ابو بكر) .

ومما تجدر الاشارة اليه انه عثر على تمثال صغير من الطمى فاقد الساعد والذراعين ؛ لعل السحرة قد فعلوا به ذلك اتقاء شر صاحبه . مثلما كان يحدث فى نهاية زمن الأسرة الخامسة من الدولة القديمة عندما انتشر تقليد كتابة النصوص السحرية المعروفة باسم نصوص الأهرام داخل غرفة الدفن الملكية بالاهرامات بغرض مساعدة الملك المتوفى على

العودة الى الحياة الآخرة والصعود الى السماء حيث أرض النعيم مع الآلهة والملوك الأقدمين . لم ينس كاتب تلك التعاويذ السحرية أن يحد من خطر بعض الحروف الهيروغليفية المصورة كالثعبان الذى يرمز الى حرف ز ، فصوره وقد أغمد فى ظهره سكينا . ولم يحاول الفنان استكمال رسم العلامات التى ترمز للانسان ، فاكتفى برسم الجزء العلوى دون الجزء السفلى ، حتى اذا ما ساعد السحر فى تظرهم على احياء هذه الكتابات ، تصبح غير ذات خطر على صاحب القبر الملكى .

وتشير أحدث الأبحاث التى قام بها العالم الفرنسى فركوتى Vercoutter (٣٥) فى بوهين والمنطقة المحيطة بها ، الى احتمال نزوح عدد كبير من المصريين وخاصة من بين اهالى منطقة طيبة ، وقد قام هذا العالم بدراسة مخلفاتهم هناك ، وخاصة اللوحات التذكارية التى تركوها ؛ واستنتج من دراسة أسماء أصحابها ومن معبوداتهم وجود عدد غير قليل منهم فى الفترة الى تلت فتوحات الملكين سنوسرت الأول والثالث ، ليقيموا داخل القلاع العديدة التى أخذت تنتشر فى البلاد ، وتشير جباناتهم ، بما تحتويه من تقاليد وعادات مصرية صميمة ، الى موطنهم الأصلى طيبة . والواقع أن موضوع استيطان عدد من المصريين فى بلاد النوبة فى أوائل أيام الدولة الوسطى مازال يحتاج الى مصادر تاريخية أوفى وأشمل ، حتى يمكن أن تقال فيه الكلمة الأخيرة . ومعظم النصوص التى تتحدث عن حملات حربية ضد الثائرين من أصحاب المجموعة الثالثة من أهل تلك البلاد ، لا تشير الى استيطان الجنود المصريين للبلاد ، فنقوش أمنمحات حاكم اقليم بنى حسن فى مصر الوسطى ، التى تحكى عن حملات حربية ضد الثائرين فى تلك البلاد ، تشير الى عودة الجنود بعد انتهاء مهمتهم الى موطنهم الأصلى فى مصر . ورغم قلة المصادر الموثوق بها فى هذا المجال ، الا أن عددا من الألواح التى عثر عليها فى بوهين تؤكد استيطان بعض عائلات مصرية لمدد طويلة أيام الدولة الوسطى فى النوبة ،

---

(٣٥) Upper Egyptian Settlers in Middle Kingdom, Kush V. p. 61-69.

ليس فقط لأنهم يحملون أسماء مصرية بل أيضا لأنهم أحضروا معهم معبوداتهم المصرية ، هذا الى جانب تقديسهم لمعبودات المنطقة المحلية (٣٦) .

وبالاضافة الى الكتابات المذكورة من بوهين هناك أخبار ثلاث حملات أخرى قام بها أمنى حاكم الاقليم السادس عشر من أقاليم مصر العليا (بنى حسن — المنيا) الى النوبة لحساب فرعون : الحملة الأولى حربية ، والحملتان الثانية والثالثة لاستخراج المعادن وأهمها الذهب (٣٧) وهناك بعض الكتابات على بعض الألواح تشير الى أن قلعتى بوهين وكوبان (وربما غيرهما من القلاع) قد تم انشاؤهما فعلا أيام الملك سنوسرت الأول وذلك ضمن السبع عشرة قلعة التى اقامها ملوك الدولة الوسطى فى النوبة السفلى لتأمين الحدود ، وتسهيل سبيل المرور والحماية لبعثات التعدين والتجارة ، ولوحظ أن قلعة كوبان أقيمت عند مدخل وادى العلاقى الموصل الى مناجم الذهب ، وقد أقيم فى كل قلعة معبد صغير من الطوب اللبن الذى استبدل بالحجر فيما بعد فى زمن الدولة الحديثة . وفى منطقة الشلال الثانى اقيمت القلاع متجاورة بحيث يمكن لبعضها مؤازرة البعض الآخر فى حالة الضرورة . ولم يمكث فى القلاع الا اعداد قليلة من الجنود ، كانوا يكلفون أيضا بسحب وحماية القوارب أثناء مرورها بين صخور منطقة الجنادل هناك . هذا بالاضافة الى عملهم الأساسى وهو حماية الحدود . أما القلاع المقامة فى المنطقة بين الشلال الأول ووادى حلفا فكان الغرض منها ضمان السيطرة على أصحاب حضارة المجموعة الثالثة ، خشية اثارة الاضطرابات على حدود مصر الجنوبية . وقد خضعت منطقة حضارة المجموعة الثالثة من الشلال الثانى وحتى الشلال الأول من الناحية الادارية لحاكم أسوان ، الذى أصبح حاكما للنوبة ايضا ، وكان أول من عين فى هذا المنصب زمن الدولة الوسطى أيام الملك سنوسرت الأول هو الحاكم سارنبوت ، ومقبرته فى أسوان . وقد عثر كويبل Quibell عام ١٨٩٦ م . فى مقبرة من أواخر الدولة الوسطى

---

(٣٦) BAR I. 519-20; Newberry & Griffith. Beni Hassan I. pl. VIII.

(٣٧) BAR I 88, 520-521.

وتقع أسفل معبد الرمسيوم — الذى بناه رمسيس الثانى — على بردية تحمل قائمة بأسماء القلاع السبعة عشرة المذكورة (٣٨) مثل سمنة ونمة ثم أورن آرتى وشفلك Shalfak وتقع غربى النيل فى مواجهة فرص ، ومرتسمه ، وقد كشف عنهم ريزنر ، ونشر دنهام نتائجها مؤخرا (٣٩) . ثم اقن فى الجانب الغربى للنيل امام Maynartiوبوهين ، التى كشف عنها امرى ، وعنيبة (ميمم) ، باكى (كوبان) ، بجه Biga وغيرها .

وعند قلعة سمنه اقام الملك سنوسرت الثالث الواح الحدود ، وفى متحف برلين الشرقية لوح للحدود رقم ١٤٧٥٣ ، يثبت فيه الملك حدود مملكته مع الجنوب وشروط المرور :

« الحدود الجنوبية ثبتت (عملت) فى العام الثامن [من حكم] جلالة ملك الجنوب والشمال سنوسرت (الثالث) المعطى الحياة » .

وبينما أخضعت حضارة المجموعة الثالثة للأثر المباشر للحضارة المصرية فى زمن الدولة الوسطى المصرية ، استمرت حضارة كرمة فى معظم الأحيان فى فى التطور بلا انقطاع ، واتخذت شكلا سياسيا أكثر تحديدا ، وعرفت باسم دولة كوش .

---

(٣٨) Arkell. History p. 62 ff.; Budge I, 539 ff.

(٣٩) Dunham, MFAB 1967 «Second Cataract Forts. Uronarti, Shalfak, Mirigissa, excavated by Reisner and Noël Wheeler».